الحجارة المؤلّهة

وعبادتها عند العرب الجاهليين

من آثار المرحوم الاب هنري لامنس

عود على بدء

كنا في مصر نراجع موادّ البحث المتقدّم[1] عندما وصلنا كتاب « الدروس السورية » للاستاذ فرانس كومون[2] . واول ما لفت نظرنا فيه الفصل المعنون : « حظ الساميين المزدوج ، والطواف على ظهر الجمل . » (ص ٢٦٣ وما وليها) وقد رأينا في الصفحة ٢٦٤ رسم قطعة خزفية مكتشفة في دمشق . وفيها صورة جمل يحمل إلاهتين في محمل كالهودج . وترب سنام الجمل ، ثم على مؤخر عنقه ، وعلى الشخصين الالهيين تغشيهما يخال للناظر انه يرى شبه خيمة ابتدئ بتمثيلها او شبه قبة على شكل نصف دائرة.[3] ويقابل الاستاذ كومون بين هذه القطعة وقطعة اخرى خزفية مكتشفة في سورية ، ومحفوظة في متحف اللوفر.[4] وهي تمثل كذلك امرأتين على ظهر الجمل ، تنفخ احداهما بالمزمار ، وتضرب الاخرى على الدفّ . « وعلى رأسيهما تنتصب خيمة نصف مستديرة ، او قبة من جلد تحفظهما من وقع حرارة الشمس » (٢٧٤) ويرى العالم الأثري البلجيكي في هذا الزوج من الالاهات رمزًا الى ازدواج الحظّ في اعتبار الساميين . وليس لنا ان نتوقّف لدى هذا الرأي . انما نكتفي بالاشارة الى قيمة هذه التماثيل ، واهميتها في التدليل على ما وصلنا اليه في المحاولات السابقة . ونحن نرى فيها كل العناصر التي اشرنا اليها في ابحاثنا : الجمل

---

١) اطلب « مشرق » السنة الثالثة ٣٦ [١٩٣٨] ١-١٧

٢) Fr. Cumont. *Etudes syriennes*. Paris, Picard, 1917

٣) Cumont, *op. cit.*, 265

٤) Cumont, *op. cit.*, 273

المقدّس ، والالاهات ، والقبّة نفسها ، مظلّلة « البيت » او الحجر المؤلّه ، وعلى الجملة كل ما يتطلّبه الطواف الديني من عناصر .

ويقول الاستاذ كومون : « ان الجمل يظهر لنا من الدوابّ الدافئة الى المزء والسخرية . وان اسمه ليثير باللغة الفرنسوية عاطفةً بعيدة جدًا عن الاحترام . »[1] بيد انه كان محترماً في نظر العرب . كان لبني ياد ناقة مكرّمة « يتبرّكون بها . » وكانت القبيلة ، ايام النكبات ، تسير باجمعها وراءها .[2] وكان الطائيون يكرّمون التكريم المطلق جملًا لهم اسود .[3] ويحدثنا القرآن عن ناقة الله التي أُرسلت الى ثمود .[4] فليس من شكّ اذًا ان وجود الجمل يدلّنا الدلالة الواضحة على جنسيّة الاشخاص ، وعلى مهنهم الدينية . فنستنتج ان امامنا مشهدًا يمثّل طوافاً دينياً على عهد الجاهلية . اما الشخصان المؤلّهان فموطنهما تلك المناطق العربية التي أثّرت فيها اليونانية بعض الأثر ، مناطق « الولاية العربية » Provincia Arabia الممتدة جنوبي دمشق . ولا عجب ان يكون التأثير اليوناني ، الذي ولد في تلك الجهات تمثالًا خاصًّا لزفس عُرف « بزفس الصفاني »[5] ، والذي حوّل اللات الى شبه اثينا - ميزرفا[6] ، قد عمل على احلال التماثيل المصنوعة محل « البيوت » او الحجارة المؤلهة القديمة . واذا ما اراد علماء الإسلام ان يؤرخوا دخول الاوثان مكة فانهم يقولون انها جُلبت من هذه الانحاء .[7]

ويزيد الاستاذ كومون في وصفه ان الألوان المتعدّدة الفاقعة كانت تزيد في

---

١) راجع في مدح الجمل ، القرآن ١٦ [النحل] ٨٣٦ . وكثيرًا ما يشبّه البطل العربي بالجمل . راجع Lammens, *Berceau de l'Islam*, I, 131-132 حسان بن ثابت : ديوانه ١٣ : ٥ ؛ ابن هشام : السيرة ٥٦٥، ٦٧٩ ؛ الجاحظ : الرسائل ٧٥ ؛ الواقدي : المغازي ٢٢٢

٢) الاغاني ١٥ : ١٧

٣) الاغاني ١٦ : ٤٨

٤) القرآن ٧ [الاعراف] ٧١

٥) Dussaud et Macler, *Voyage archéologique au Safâ*, 23

٦) Waddington, *Inscriptions de Syrie*, N° 2203, 2308.

٧) ابن هشام : السيرة ٥١

جمال الشكل الأول . وكان اجدرها بالذكر واقواها صبغاً الأحمر والاخضر.[1] قلنا: ولو حُفظت هذه الألوان لظهر ان الاحمر منها كان مختصاً بالقبة[2]. وكثيراً ما سمعنا بتلك « القبة الحمراء » او « القبة من ادم احمر » التي كانت تُنصب على الحجارة في الحلّ والترحال.

اما في ما خصّ الشكل الثاني فيلاحظ الاستاذ كومون « ان الزامرات كثيراً ما كنّ في خدمة الآلهة . . . وان الطبول والدفوف كثيراً ما استُعملت ، في بلاد الشام ، في الحفلات الدينية . » بل ان من ضاربات الدفوف من ظهرن في جامع المدينة ، على مرأى من النبي ، في اثناء الاحتفال باعياد مِنى ، وهي من الاعياد الدينية . فهل كان ذلك من مظاهر الصدفة والاتفاق ؟ وقد ذُكر منهنّ اثنتان في المدينة[3] ، وهو العدد الظاهر في القطعة الخزفية الثانية . ولا يتردّد الاستاذ كومون في ان يعتبرهما من متمّمات الموكب الديني . فيقول ان التماثيل المؤلّهة كان يتبعها الموسيقيّات فيُحملن على الجمل كما حملت الاشخاص الالهية.[4] وهو ما يظهر من مصادرنا العربية كما سيتضح من البراهين الآتية.

يسأل الاستاذ كومون لماذا عُرض لعبادة المؤمنين تمثالان لا تمثال واحد ؟[5] ويجيب بان السبب في ذلك يستخرج من ان في سورية مظهراً لتقدير الحظّ او النصيب المزدوج . بيد اننا قد نرى سبباً آخر ، اذا ما دققنا في درس مصادرنا العربية . فنستفيد معلومات قد نفهم بواسطتها حق الفهم هذه « الآثار » المهمّة من جاهلية العرب ، التي كان من فضل الاستاذ كومون ان كشفها وابان ميزاتها الدينية . ولا يخفى ان معرفتنا الضئيلة بمظاهر الشرك العربي القديم تحول بيننا

---

١) Cumont, *op. cit.*, 265

٢) يذكر الطبري في تاريخه (١ : ٣٢١٦) ان عائشة كانت ، يوم الجمل ، في هودج احمر على ظهر جمل احمر .

٣) البغوي : المصابيح ٢ : ١٦٧ ؛ النسائي : السنن ١ : ٢٣٦ . وفي موكب المحمل عدد من «الطبّالين» اطلب البَتَنوني : الرحلة الحجازية ١٤١ : G. de Nerval, *Voyage en Orient*; I, 168

٤) Cumont, *op. cit.*, 276

٥) Cumont, *op. cit.*, 265

وبين الشرح التام النهائي لهذه التثنية او الازدواج في عرض التمثال . وسنرى ، في ما بعد ، ان مكة المشركة كثيرًا ما كرّمت الحجارة المؤلّهة او الأركان أزواجاً أزواجاً ، كما قد يُستخرج من ابيات شعرية منسوبة الى ابي طالب يُذكر فيها « المروتان » .[1] وكما قد يُستخرج كذلك من بيت لحسّان بن ثابت يشير فيه ، الى الازدواج في الطواف[2] . ثم ان اختلاف الرواة في تعيين مقرّ الزوج الالهي ، إساف ونائلة المكرّمين معاً[3] ، قد يكون سببه الانتقال بهما في تطوافات متكرّرة .

❺

ورأينا ابا سفيان في موقعة أُحد يحمل اللات والعزّى .[4] ولاحظنا في سرد الحادثة ، اشتراك هاتين الالاهتين ، على نحو ما رأينا في الأثر الدمشقي الأوّل . ويجب ان نفهم لفظة « يحمل » بمعنى يتجاوز المعنى الوضعي الضيّق . فان ابا سفيان بصفة كونه زعيم الحملة امر بان تُنقل الالاهتان مرفوقتين بعدد من الحرس دون شك . ولكن هل نقل الحجران بنفسيهما ام نقل رمزٌ او مثال لهما ؟ هو ما لا نستطيع معرفته بواسطة النصّ الغامض . على ان رقم « الاثنين » يظلّ واضحاً . وهو الظاهر في طريقة الطواف القرشية المشركة . وقد يكون في اصله مأخوذاً عن تقليد عريق في القدم حتى ظلّ معروفاً ، على ما رمى اليه القرآن من اشارة معاكسة ، اذ جمع بين الالهات ثلاث : اللات والعُزّى ومناة[5] ،

---

١) ابن هشام : السيرة ١٧٣

٢) حسّان : ديوانه ٥٧ : ٣

٣) ابن هشام : السيرة ٩٤ ، وقابل بما في الصفحات ٥٤ ، ٧١ ، ٩٨ ، ١٧٣

٤) الطبري ١ : ١٢٩٥ ؛ الاغاني ١٤ : ١٥ . وكثيرًا ما ذُكرت اللات في رُقُم الصفا ؛ اطلب :

Dussaud-Macler, *Mission dans les régions désertiques de Syrie*, 55...

٥) القرآن ٥٣ : ١٩—٢٠ . بيدَ ان القرآن نفسه يجمع في آية واحدة بين اللات والعزّى ، ويبقي مناة وحدها في الآية ٢٠ . وقد يكون ذلك في سبيل السجع ! على ان مناة كانت تُعتبر الاهة مدنية خاصة . راجع النصوص التي جمعها ولهوسن (Wellhausen, *Reste*, 25...) وقد تكون هذه الصفة المدنية هي التي حدت برواة موقعة أُحُد فأخرجوها من روايتهم .

فنسب الى الشعب احترامها مثلثةً . ذلك اننا نلاحظ اللات والعزّى تؤلفان زوجاً[1] يمثل وحده افضل تمثيل آلهة العرب المشركين جميعهم . يؤيد ما ذهبنا اليه ، فضلاً عن النصوص القديمة ، حديث ينسب الى النبي اورده مسلم[2] . وفيه يقول : « لا ينقضي الليل والنهار حتى يعود الناس الى عبادة اللات والعزّى . » وقد شاء صاحب الحديث ان يصوّر عودة الناس الى الشرك او الوثنية قبل نهاية العالم فلم يرَ افضل من ان يمثل هذا الشرك بعبادة اللات والعزّى . هذه من الامثلة النادرة التي نرى فيها السيرة ومجاميع الاحاديث تستقلّ قليلاً عن القرآن ؛ فلا تتبعه حرفياً في ما خصّ المعلومات عن الشرك الجاهلي . فليس اذاً من صدفة عارضة في ازدواج الالاهتين في موقعة أُحد . وان من يحاول شرح الحادث بتأثير القسم او اليمين الحالفة باللات والعزّى[3] ، دون ذكر مناة ، فانه لا يشرح بل يردّ المشكل الى مشكل آخر .

نقل لنا ابن اسحق ، في ما نقله من قصائد منحولة ، قصيدةً نسبها الى زيد ابن عمرو المكي — وهو من اولئك الزهّاد الحنفيين القرشيين الذين لا تكاد تخرج شخصيتهم من ضباب الاساطير — وفيها ان الشاعر ينكر عبادة اللات والعزّى ، وبنتَي اللات ، وصَنمَي بني عمرو .[4] وهذا كعب بن مالك ، الشاعر الانصاري ، يعلن ان الناس ينسون قريباً اللات والعزّى[5] . وفي حماسة ابي تمام[6] يحلف

---

١) راجع مطهّر المقدسي : الكتاب المذكور ٥ : ٨٢

٢) مسلم : الصحيح ٢ : ٥٠٤

٣) راجع الثاني : النسخ ٢ : ١٤٠ : البخاري : الصحيح (طبعة القسطنطينية) ٧ : ٢٢٣ ؛ الاغاني ٣ : ٢١٠ ، ١٩٣ ، ١٩٢ : ابن سعد : الطبقات ١ : ١٠٠ ، ١٠١ (وفي ص ١٢٢ تُذكر اللات وحدها ، وهو حادث غريب في الأبان) ؛ الواقدي : المغازي (طبعة Kremer) ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٤٨ . في ابن هشام : السيرة ٧٤٤ ، تُذكر اللات منفردة عن رفيقتها . اطلب ايضاً : ابن هشام : السيرة ٥٠٣ ، ٥٠٦ ، ٧٨٣ ؛ الاغاني ٢٠ : ١٢٩ ؛ مسلم ٢ : ١٩٠ ، ٤٦٧

٤) ابن هشام : السيرة ١٥٤ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ٨٤ ؛ الاغاني ٣ : ١٥-١٦

٥) ابن هشام : السيرة ٥٢ . ويظهر ان الشرك في مكة كان يُلخّص بعبادة الالاهتين ليس غير . راجع ايضاً ابن هشام ٣٠٧-٣٢٣ ، ٧٨٣ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ١٠١

٦) ابو تمام : الحماسة ١٩٠ : ٥

احد الشعراء بالعُزّيين ، ولعلّه اراد بهما الالاهتين اللتين حملها ابو سفيان ، واللتين يحلف بهما الشعراء عادةً ، كما تقدّم ، وكما فعل أوس بن حجر ايضاً .

فهل يمكننا ، بعد كل ما تقدّم ، ان نرى اللات والعزّى ممثلتين في القطعة الدمشقية ؟

لا شك في ان الجواب يُصبح سهلاً ، لو كنا نعرف الشيء الواضح عن الحالة الوثنية في بلاد الغساسنة . بيد انه يكفينا ان نرى في القطعة المذكورة تمثيل بعض الطقوس الدينية ، حتى لا ننسبها الى عبث الخزّاف برسم هيئات لا معنى لها ولا غاية ، كما ذكرت « المجلة الكتابية ».[1] وان هذا الشرح البسيط لا بدّ ان يكون قد عرض لفكرة الاستاذ كومون الثاقبة ، فلم يتردّد لحظة في اطّراحه .

تطلعنا مجاميع الحديث على ان النبي قام بالطواف حول الكعبة ، على ظهر الجمل ، وكذلك كان سعيه بين الصفا والمروة .[2] أوَ لم يرمِ بهذا الطواف الجديد في بابه الى محو تلك العادة الوثنية القديمة القائمة بالطواف مشياً . ولا يخفى ان الطواف على الجمل يجعل من المستحيلات استلام الحجر الأسود[3] ، وهذا الاستلام من ضروريات الحجّ ، كما يُقال . واذًا فما الحكمة في هذا التجديد ؟ اما علماء الدين الاسلامي فليس عندهم ما يشرحون به شرحاً مقبولاً عمل النبي هذا في سنّه للمؤمنين منهاج الحج الإسلامي حتى في ادقّ مظاهره وابسط مراحله .[4] واما القطعة الخزفية فتفيدنا ان هناك في الجاهلية نوعاً من الطواف كانوا يقومون به على ظهر الجمل ، نوعاً يؤكّده وصف معركة أُحد ، ويقرّه الشرح المقبول للالفاظ : «سعى ، إفاضة ، طواف» وكلّها تفرض فكرة الجولان او « الرياح » الطقسي مدّة الحجّ .

وفي وصف معركة أُحد اشارة الى أمر قد يحلّ لنا مشكل القطعة الخزفية

---

١) *Revue biblique*, 1918, p. 290

٢) النسائي : السنن ٢ : ٢٧

٣) النسائي : السنن ٢ : ٢١ ، وقابل بما في ٢٧ . ويستفاد من بعض النصوص ان محمداً يلمس الحجر بعصاه (الاغاني ١٣ : ١٦٦ ؛ مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٦ ، ٤٨٨)

٤) النسائي : السنن ٢ : ٤٢ ؛ مسلم في المواضع المذكورة .

الثانية . هو ما ذكرناه آنفاً من عادة العرب بان يجعلوا حول « القبة » المقدسة موكباً من النساء. وقد يختلف عدد مؤلفات الموكب او حارسات القبة . فيقوم بحراستها اثنتان ، على نحو ما ورد في الاغاني عن فند الزماني اذ عهد الى « شيطانتين » من بناته بحراسة القبة[1] . وهو ما رمى اليه دانع القطعة الخزفية اذ مثل اثنتين فقط . وقد تتولى الحراسة امرأة واحدة كسُبيعة الثقفية ، وابنة عوف بن مالك البكرية . وقد يتولاها اربع .[2]

ومهما يكن من أمر ، فان القرشيين قبل سيرهم الى أُحد ، اخذوا معهم عدداً من النساء[3] ، وكذلك حصل قبل موقعة بدر . ولِمَ ذلك ؟ وما هو السبب الحقيقي لهذه الاستعانة بجمهور من النساء في معركة ليس من طبيعتهن ان يعطلن بحرّها ؟

هو ما فات مؤرخي المسلمين ، بعد الهجرة بقرن واحد ، فجهلوا السبب الحقيقي ، وخفي عليهم الدور الديني الذي يمثله النساء في المعارك[4] . فاخذوا يقولون ان الغاية من ذلك ان يحتسن الرجال ، ويستنفرنهم ، ويذكرنهم بانكسار بدر المخجل ، الى غير ذلك من الاسباب التي يمكن تصوّرها بعد وقوع الحادثة . . . بيد ان المؤرخين انفسهم يعلموننا ان النساء كنّ ، في اثناء الموقعة ، « يضربن بالأكبار والدفوف والغرابيل » وكلها آلات موسيقية حربية يجهلها قدماء العرب في موسيقاهم ، ولا نرى لها ذكراً الّا عندما يتبع النساء الرجال الى ساحات الحرب . وليس ما يشين العادات العربية الاصلية ، والتقاليد البدوية العتيقة كاتخاذ النساء مثل هذه الآلات . حتى ان المرأة الحرّة لتأنف كل الأنفة من مسّها . ولهذا كانت الموسيقى متروكة للعبيد من الجنسين . وهو برهان جديد على اننا ، في هذا النص الحربي ، امام مظهر من مظاهر الدين ، وفي احتفال من الاحتفالات

١) الاغاني ٢٠ : ١٤٤

٢) الاغاني ١٢ : ٥٥ . اما بشأن ذي قار فراجع الاغاني ٢٠ : ١٢٦، ١٢٧

٣) الواقدي : المغازي ص ٢٠١

٤) راجع الواقدي : الكتاب المذكور ؛ ابن هشام : السيرة ٥٥٧ ؛ ابن سعد : الطبقات ٢ : ٣٥ ؛ الاغاني ١٤ : ١٤

الطقسية. ولولا الدين لما خرجت حواثر مكة في هذا المشهد، تنشد، على انغام الموسيقى، تلك المقطوعات نفسها التي نُسبت الى الكاهنات في موقعة ذي قار وايام بكر وتغلب.[1] وليس من ذكر للمزمار بين الآلات الموسيقية. على اننا نكتفي بهذه المقابلات، فهي وافرة الايحاء بشأن الموضوع الذي يهمّنا. ومن العبث ان نطلب وصفاً اوفر، وتدقيقاً اوفى من مؤرخي تلك «المغازي». ولا يهمّهم، بعد ان اشاروا الى وجود المعبودتين القرشيّتين، ان يفصّلوا دور النساء القرشيات وعملهنّ على جمع المحاربين حول القُبّة، او الخباء المقدّس، مظلّل المعبودتين. ومع ذلك فقد يلمّح الواقدي الى شيء من ذلك عندما يقول ان النساء تراجعن الى «الحُجرة»[2] ولا يخفى ان «الحجرة» ترادف «القُبّة».

على هذا الشكل كان يجتهد النساء في بثّ الحماسة في صدور الرجال «لئلا يفرّوا.»[3] وهو الدور الذي عرفناه لنساء البكريين يومَ ذي قار، عندما قام السيد حنظلة بن ثعلبة «الى وضين راحلة امرأته فقطعه. ثم تتبع الظعن يقطع وضنهنّ»[4] فيمنع النساء، وبالتالي الرجال، ترك الموقعة. وقد تجرأت احدى نساء المكيين، يوم أُحد، فرفعت اللواء.[5] واننا لنكون اكثر قرباً من الحقيقة اذا ما استبدلنا العذارى بسيدات قريش في اقوال «السيرة». وعند ذاك يتوى الشك في ما نُسب الى هند من تمثيل بجثة حمزة. وقد يكون هذا من مخترعات العبّاسيين في سبيل الحطّ من خصوم الدولة المباركة.

ونرى عادة نقل النساء الى ساحة الحرب شاملةً حتى النصارى من البدو. وهؤلاء التغالبة لا يشذّون عنها. فينقلون نساءهم الى ساحة الحرب، يوم الحشاك،

---

١) الاغاني ١٤: ١٧؛ ابن هشام: السيرة ٥٦٣؛ ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٨؛ الواقدي: المغازي ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٢١، ٣٢٢؛ وقابل بما في الاغاني ٢٠: ١٤٠، ١٤٤

٢) الواقدي: المغازي ٢٢٧

٣) الاغاني ١٤: ١٢؛ مسلم؛ الصحيح ١: ٥٥٧، ٥٦٣

٤) الاغاني ٢٠: ١٢٧

٥) الاغاني ١٤: ١٧؛ ابن هشام: السيرة ٦١٠؛ راجع بحثنا في «الاحابيش» في المشرق ٣٤ [١٩٣٦] ٢٤

ويتعاقدون على ان لا يفرّوا. فتساعدهم هذه الحالة على الظفر.[1] وقد ذكر الرواة عددًا من النساء مع النبي في مغازيه . فجاء في صحيح مسلم[2] انهنّ كنّ يقمن بما يقرب من اعمال ساقيات الجرحى والممرّضات . فاذا صحّ ذلك ، وكان هذا اصل مهمتهنّ، لا التأثر بذاك التقليد الديني القديم، فلِمَ لم تتتابع هذه العادة ولم يتأثر المسلمون بنبيّهم في اقرار هذه المؤسّسة الانسانية زمن الحرب . اما في يوم الجمل فلم يكن من النساء الّا عائشة ممثّلة في قبتها الحمراء ، « بيت الاله » القديم او الحجر المعبود . ولنُشر اخيرًا الى خِباء سُبيعة الذي نُصب قبل ابتداء المعركة في حرب الفِجار ، وكانت تحرسه امرأة مسعود ، احد سَدَنة معبد اللات في الطائف .

ذكر احد قدماء الرحّالة عن سلطان مراكش انه اذا سار الى معركة مهمّة على رأس رجاله السود حمل معه «صحيح» البخاري محفوفًا بمظاهر التكريم ، وعجالي الاحترام ، وكأنه تابوت العهد في الزمن القديم . وكان كتاب الصحيح يوضع في غلاف ثمين ، ويظلّله خباء خاص يُنصب حتماً الى جانب خباء السلطان.[3] يقرب هذا مما توهّمه المختار في القرن الاول للهجرة من مظلّة او خباء يرافق الجيوش الى الحرب ، منصوباً على ظهر بغل ، ومكسوًّا باغطية الحرير والاطلس[4]. وانه ليصعب علينا الايمان بان هذا الثقفي الغريب الاطوار — هذا الخَلَف المتأخر للكهّان ، كما يدعوه ولهوسن[5] — لم يفكر في اختراعه هذا بتأثير القبّة الجاهلية !

ولقد ظلّ ذكرها محفوظاً في اوساط مكة العسكرية . حتى ان معاوية ،

---

١) ديوان الاخطل (صالحاني) ص ٣٦٧ ؛ واطلب بحثنا في *Le chantre des Omayyades*, p. 137

٢) مسلم : الصحيح ٢ : ١٠٣

٣) ذكرها Goldziher, *Zāhiriten*, 115

٤) راجع الجاحظ : كتاب الحيوان ٣ : ٩٩ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ٢٩١ ؛ الطبري : تاريخه ٢ : ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٦

٥) Wellhausen, *Reste*, 137

بعد ذلك بنصف قرن ، فكر فيها ، قبل معركة صفّين ، « فرفع قبة عظيمة. فالقى عليها الثياب ، وبايعه اكثر اهل الشام على الموت . واحاط بقُبته خيل دمشق . »[1] أوَ ليست هذه القبة القبة الجاهلية بعينها ، التي رفعها ابو سفيان ، والد معاوية ، في معركة أُحد ؟ اللهم ما خلا الحجارة المؤلهة ، معبودات قريش سابقاً ، التي ادال الاسلام دولتها بقضائه على الشرك.

كل هذا الماضي الديني يمحوه ولهوسن بجرّة قلم عندما يكتفي بذكر القبة المرفوعة في صفين فيسميها قبة معاوية العسكرية.[2]

❁

وضح لنا ، في كل ما تقدّم ، كم كان للمواكب الدينية من تأثير في اهل مكة . حتى تحرّكت في هجائهم قرائح شعراء البدو[3]. وان لنا شاهداً متنامياً في مفردات القرآن الخاصة بالحجّ ، والطواف ، وسائر الشعائر الدينية المتعلّقة بالكعبة ، والصفا ، ومروة . وفي كلها اشارات الى المساعي ، والمواقف والدورات ، ورؤساء الحجّ ، والادلّاء ، ممّا قد يبرهن عن اصالة هذه العادات ، وتعوّد مكة مثل هذه الطوافات الدينية . ولم يكن هناك حجّ عرفة فقط ، او عُمرة رجب ، بل كانت مكة تحفل بعدد من الطوافات الدينية في سنتها الطقسية ، لوفرة ما كان في حرمها ، قبل الإسلام ، من « أنصاب » او « أعلام » كما تذكر بعض النصوص مستبدلةً اياها « بالانصاب » لأنها الطف وقعاً وأخفّ دلالةً على الشرك[4] . اما بعد الهجرة فيظهر انه استُعيض عنها شيئاً فشيئاً بمالم مرتفعة « كالأبراج »[5] . وكان العرب ، قبل الاسلام ،

---

١) ابن الاثير : الكامل (طبعة Tornberg) ٣ : ٢٤٦ ؛ نصر بن مزاحم : الكتاب المذكور ١٢٠

٢) Wellhausen, *Reste*, 73 ٣) الاغاني ١ : ٢٠

٤) راجع في ذلك الطبري : تاريخه ٣ : ٢٢٢٦ ؛ ابن هشام : السيرة ٧٠٢ ، ٨٠٢ ؛ ابن سعد : الطبقات ٤ : ٢٣ ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ١٨١ ؛ وقابل بما في الجاحظ : الحيوان ٤ : ٨٢ ؛ المقدسي ٧٧ ؛ اسد الغابة ١ : ٦٣

٥) ابن جبير : رحلته (طبعة de Goeje) ١١٢

يكرّمون هذه الأنصاب بزيارات وذبائح دورية هي « التآثر » دون شكّ . وكان لحم الضحية يظلّ متروكاً لكواسر الجوّ ووحوش القفر . ولم يكن محرّماً على الحاضرين ان ينالوا من هذا اللحم . وهذا ما رأيناه في الاضحية التي فدى بها عبد المطلب ابنه عبدالله فبقيت « لا يُصدّ عنها انسانٌ ولا سبع . »[1] واني لأظنّ القرآن يشير الى هذه العادات عندما يتكلم عن « الإفاضة » في تلك المواكب المتحرّكة نحو لحوم الذبائح المضحّى بهـا حول الأنصاب . وليس من شكّ في أن دقائق هذه الحفلات ، لو حفظها لنا التقليد ، لظهرت شبيهة بدقائق الحفلة التي قام بها بدو منطقة سينا في استعدادهم للتضحية بالشاب تيودول ، ابن القديس نيلوس[2] . فلا بدع اذاً ان يكون النبي العربي أنف من هذه المظاهر الهمجيّة ، فقضى على عبادة الأنصاب وعـدّها من « الرجس »[3] . وقد اهتمّ الإسلام ، بعد الفتح ، على عهد النبي[4] ثم على عهد الراشدين ، بتعيين مواقع هذه الأنصاب[5] . فكان هذا العمل التخطيطي دالّاً على معالم تلك الطوافات القديمة التي كانت الأنصاب محجّاتٍ واهدافاً لها ، والتي عمل الإسلام شيئاً فشيئاً على ملاشاتها او على تحويلها الى شعائر اسلامية .

ومن لوازم هذه الطوافات ، في العصور الجاهلية ، المظلّة او الخيمة المسمّاة « بالبيت » ، والتي عرفناها باسم « القُبّة » وهو الأشهر . على ان « القُبّة » هذه يجب ان تميّز عن الخيمة العادية[6] او « الخِباء » او « بيت الشعر »[7] الذي تأوي اليه الاسرة البدوية . اما الميزات بين الخيمتين فهي ان القُبّة - المظلّة الدينية

---

١) ابن هشام : السيرة ١٠٠

٢) مجموعة الآباء اليونان لمين ٧٩ : ٦١١

٣) القرآن ٥ [المائدة] ٩٣

٤) ابن سعد : الطبقات ٢ : ٩٩

٥) الذهبي : الميزان ٣ : ٣٩ ؛ اسد الغابة ١ : ٦٣ ، ٢١٤ ، ٣ : ١١ ، ٢٨٨ ، ٤ : ٢٠٧ ، ٢٤٧

٦) البكري : المعجم ٣٤ ؛ راجع ايضاً لسان العرب ٢ : ١٥٢ ؛ الجاحظ : المحاسن ١٠١ وفيها ذكر « قُبّة » الأسد ، ويريد بها قفصه .

٧) وكثيراً ما ترادف هاتان اللفظتان في النصّ نفسه . اطلب الاغاني ١٥ : ٥٠

تكون اصغر من الخِباء العادي[1] ؛ ويكون رأسها مستديرًا منتهياً بحربة[2] ؛ وتكون ذات لونٍ خاصّ هو الأحمر على الغالب ، واخيرًا تمتاز بالمادّة التي صُنعت منها وهي الجلد او الأدَم . وهي في اصلها صغيرة جدًّا حتى انها كانت تُحمل منصوبة . ولكنها تطوّرت شيئاً فشيئاً حسب الحاجات الزمانية والمكانية حتى اصبحت سرادق فخماً يُرفع في عظائم الاحوال في سبيل غايات بعيدة عن الدين. وقد غفل ولهوسن عن تتبّع هذا التطوّر السريع بتأثير الإسلام ، ففاته ادراك الأصل الديني والطقسي للقُبّة الجاهلية.

ولا يخفى ما كان من اهمية الجلد او الأدم عند قدماء العرب[3] . حتى ان هذه الصناعة كانت من موارد الثروة المهمّة في الطائف . وكان العرب يصنعون مضاربهم النفيسة اول الأمر من جلود الجمال . وكذلك كان القسم الأكبر من مواعينهم ، كالآنية ، والقُرَب ، والدلاء ، والوسائد ، والفرش . ونحن نعلم ان البدوي لم يكن يبيطر خيله ، قبل الهجرة ، بل كان « ينعلها » اي يضع لحوافرها نعالًا من الجلد[4] . حتى ان وجود القدر المعدنية او اية آنية اخرى من المعدن كان دليلًا على الثروة والترف[5] . فاذا توفي صاحبها ورثها ابناؤه

---

١) ابن الاثير : النهاية ٣ : ٢٢٢ ؛ ويقول لسان العرب (٢ : ١٥٢) عن القبّة انها صغيرة مستديرة من أدم .

٢) وقد تُطلق « القُبّة » على المحمل (الاغاني ٦ : ٧٣ ؛ ٣ : ١١٥) ويكون محمل الحجّ هرميّ الشكل في قسمه الأعلى منتهياً بقبة صغيرة (راجع الدكتور صالح صبحي : الحجّ الى مكة ، ٣٦)

٣) قابل بما في القرآن ١٦ [النحل] ٨٣ : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً . » وراجع : Guidi, *Della sede primitiva dei popoli semitici*, 580 ؛ ثم الجاحظ : الحيوان ٥ : ١٤٣ . كانت الكنانات القديمة كلّها من جلد (ابن دريد : الاشتقاق ١٨) وقد اعتبر العلماء بالشعر القديم ان ذكر القيود الحديدية او السلاسل في القصيدة دليلٌ على نحلها وحداثتها ابن هشام : السيرة ٨١ . ولنذكر ان اسنّة الرماح كانت في القديم من القرون لا من الحديد (ابن دريد : الاشتقاق ٢١٠)

٤) اسد الغابة ٤ : ١٥٨ . ويشير الجاحظ الى اختراع الركاب الحديدي في البيان والتبيين ٣ : ٥٤ . اما بشأن العرب المعاصرين فراجع Doughty, *Travels*, I, 309

٥) الاغاني ١٤ : ١٢٨ ؛ ١٣ : ٥٤–٥٥

من بعده[١] . واذا عرف بها الشعراء علقوا بوصفها معجبين ، وبالغوا مـا شاء خيالهم في كبرها وسمتها.[٢] ولقد شاء الدين ان يظلّ أميناً على هـذه التقاليد القديمة . وهو ما رأيناه في كعبة نجران العريقة فقد كانت ، هي ايضاً ، من أدم على سمة مساحتها[٣] . وقد يمكن القول نفسه عن كعبة مكة ، بل هو ما يُرجَّح اذا ما اخذنا بالتقليد القائل ان قُبة او خيمة كانت تُنصب ، في الزمن القديم ، موضع البناء الذي قام على الحجر الأسود . وهـذا ما روى الازرقي وغيره من ان الله بعد ان طرد آدم من الفردوس منحه « خيمةً من خيام الجنة وضعها له بمكـة في موضع الكعبة قبل ان تكون الكعبة.»[٤] وفي « السيرة الحلبية » اشارة الى ان الكعبة كانت خيمةً في اصلها.[٥] أوَ لا نرى أثر هذا الوضع القديم في العادة المتّبعة حتى ايامنا بتجليل الحجارة المكرّمة ، او الابنية المحترمة ، وبما يوضع عليها من اقمشة وستائر متنوّعة . ولا تختصّ هذه العادة « بالكعبة المستورة » ، كما يقولون ، بل تتجاوزها الى غيرها من اماكن الحرم. وقد ذكر كاظم زاده « حجراً عالياً يجلله ستار اسود . ويعتقدون ان هناك صرّة حوّاء.»[٦] وكان بنو تميم يكرّمون « بيتاً من عمائم وثياب».[٧] وهذا شاهد آخر في بيت لقيس بن الخطيم يقول فيها:

واللهِ ذي المسجد الحرام ، وما حلّل من بدنة لها حُنُف[٨]

---

١) الاغاني ٨ : ٦٧ .

٢) انظر الشواهد العديدة في الجاحظ : البخلاء ٢٤٥

٣) الطلب بحثنا في *Yazid*, 340 . ويـذكر البكري في المعجم ، ص ٤٦ ، « بيتاً » لبني ياد اسمه « ذو الكعبة . »

٤) الازرقي (طبعة Wüstenfeld) ٢٥٧ ، ٢٥٨ ؛ ابن قتيبة : المعارف (الطبعة المصرية) ١٨٩

٥) السيرة الحلبية ١ : ١٦٠ . وفي المجموعة نفسها (٣ : ٢٩٣) يُذكر النبي في « قبة من خشب عليها سـوح » ولا ادري مصدر هذا النصّ.

٦) الطلب *Relation d'un pèlerinage à la Mecque en* 1910-1911, p. 26

٧) ابن دريد : الاشتقاق ١٥٥ ، الحاشية e

٨) ديوان قيس بن الخطيم (طبعة Kowalski) ٥ : ١٤ . وراجع ، في معنى حُنُف ، ج. خنيف ، ابن دريد : الاشتقاق ٢٨٩ – وكذلك كانت مستورةً المظلّة او القبة التي رفعها

وليس من الضروري ان نفهم « المسجد الحرام » ، في قول هذا الشاعر اليثربي ، بمعناه الحصري فنعني به مسجد مكة. ان المساجد كانت كثيرةً في يثرب وفي غيرها من قرى الحجاز . وقد كان لنا ان برهنّا عن هذا في بحث خاصّ درسنا فيه كلمة مسجد ومدلولاتها.[1] فابتنّا انه لا يجوز من ثمّ ان نتابع ما رمى اليه المفسّرون واللغويّون من إيهام الناس ان المعبودات القرشية كانت هي السائدة في الجاهلية . ويُستخرج من قول قيس بن الخطيم انّ انتشار الاقمشة اليمنية عمل شيئاً فشيئاً على احلالها محلّ الجلد . فظلّ هذا مختصّاً بالقباب الدينية المستعملة مظالّ في اثناء الطواف بالحجارة المؤلّهة ، او حولها.

وعند ما كان القرشيون — او على الاخصّ « الحُمس » من القرشيين[2] ، اي تلك الأسر الاكليريكية ، اذا صحّ التعبير — عندما كان هؤلاء يشتركون في حفلات مِنى كان لهم الحقّ بضرب قبابهم الجلدية ، على نحو ما جاء في قول البلاذري هذا نصّه: « كانت قباب قريش من الأدم لا يضربها غيرهم بمنى. »[3] وكانوا لا يستخدمونها لسكناهم الخاصّة . وليس ما يبرهن انها لم تأوِ في البدء مجموع الحجارة المؤلّهة المعبودة في القبيلة ، او في الحيّ المكّي ، من التي كان يُطاف بها في اثناء مشاعر الحجّ او في زيّاحات شهر رجب . وعلى كل فهي قباب دينية لا تُستخدم الّا في مناسك الحجّ الأكبر[4] او مدة الإحرام[5]. ولهذا

المختار . اطلب ابن دريد ، ص ٢٩١ ، الطبري ٣ : ٧٠٦ ؛ ثم Van Gelder, *Mohtār der valsche Profeet*, 92 ...

١) راجع Lammens, *Les Sanctuaires préislamites dans l'Arabie occidentale*, *Mél. Univ. S. Joseph*, XI, fasc. 2, 1926.

٢) ابن دريد : الاشتقاق ١٥٢ ؛ ابن هشام : السيرة ١٢٦ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٤١ . ويدعى بنو قريش سَدَنة الكعبة ، ابن قتيبة : كتاب العرب ، ٢٩٠ ؛ و« آل الله » ، ابن دريد : ك . م . ٩٤

٣) البلاذري : كتاب الانساب (مخطوطة باريس) ٢٤ قفا

٤) اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٦٨ . وفي اسد الغابة (٥ : ١٨٥) ان المؤمنين المختارين حتى في السماء يسكنون « قباباً من الجلد ».

٥) ابن هشام : السيرة ١٢٨ . وكان الرسول مستنداً الى قبة من جلد بني . البخاري : الصحيح (طبعة استانبول) ٢ : ٢٢٠

لم يهتمّ القرشيون، في شؤون عباداتهم هذه، بنسج مظالّ الشعر. وهذا قول ابن سعد: « كانوا لا ينسجون مظالّ الشعر وكانوا اهل القباب الحُمر من الأَدم. »[1] ولا شك في ان الذين نقلوا الينا هذا النصّ التقليدي من جمّاع حوادث السيرة لم ينتبهوا لفائدته الدينية الكبرى. والّا فما معنى بيوت الشعر لبني قريش وايّة فائدة منها لقوم متحضرين ينزلون قريةً عامرة ؟ بيد انهم كانوا يحفظون باجلال وإكرام قباب الجلد فيخرجونها في مظاهر عباداتهم الموروثة. وكيف لا يمكن ان نرى في هذه المعلومات إشارة الى تلك القبة القديمة من الجلد الأحمر التي كانت تظلّل الحجارة المؤلّهة في مكة المشركة ؟

والى جنب القبة كان يذكر قدماء العرب « الأَعِنَّة »[2] دلالةً على وظيفة المتقدّم القرشي الساهر على قبة المدينة والآخذ بعنان الجمل المخصّص لحملها في منازل الحجّ. ولهذا غدت « القبة » مرادفة « للمحمل » الذي اتخذ هيئتها الخارجية.[3] فحلّ محملّ المتقدّم القرشي كبارُ رجال الدول الاسلامية في طموحهم الى الأخذ بزمام جمل المحمل. وان هذا المشهد الاسلامي ليذكرنا بابي سفيان، في طريقه الى أُحد، « يحمل اللات والعُزّى »، ويعاون كبار ابناء قُصَيّ حتى مكان المعركة. أوَ لا نرى في الزيّاحات المسيحية كبار الرجال يتنافسون في الأخذ بجمال المظلّة تكريماً واجلالاً. كذلك حالة الاشخاص التي تمثلها القطعة الخزفية المكتشفة في دمشق.

ولا يصعب علينا بعد ان عرضنا الشواهد المتنوّعة وحللناها وفهمنا مضمونها،

---

١) ابن سعد: الطبقات ١ : ٤١. يشهد النبي الحجّ في قبة من أدم (ابن سعد: الطبقات ٢ : ٨٨؛ اسد الغابة ١ : ٢٥١). وفي نصّ آخر (مسلم: الصحيح ١ : ٤٦٩؛ ابو داود: السُنن ١ : ١٩٠) تُذكر « قبة » من شعر. و« البيّر » المتأخرة كالسيرة الحلبية مثلاً (٣ : ١٢٨) تقول ان الأنصار اجتمعوا في « قُبّة من ادم ». ولا شكّ ان في هذا سهواً عن مساحة القبة الاصلية الضيّقة.

٢) اطلب شرحاً تقليدياً في العقد ٢ : ٣٧. ويذكر أُسد الغابة ١ : ١٠١ انهم كانوا يجعلون في القبة « ما يجهّزون به الجيش » واعجب بهذا التحوّل ينال ذاك الجناء الضيّق فيجعله مخزناً للاسلحة ! اطلب Lammens, *La Mecque*, 67-68

٣) راجع صالح صبحي: الكتاب المذكور ٢١

ان نتصوّر تلك الحفلات التي كانت تُقام في مكة مدة « العُمرة » ، ذاك العيد الديني الوطني الواقع في شهر رجب[1] . شوارع ضيقة مزدحمة بالعابدين والمتفرّجين ، مواكب متتابعة تطوف بحجارة الاحياء ، جمال مترنّحة حاملة القباب المتمايلة الفاقعة الألوان ، يقودها زعماء القوم ، ويسير وراءها ، على الجمال ايضاً ، نساء قريش ، وقد حللنَ الشعور ، وضربن الدفوف والقرابيل ، وصحنَ باصوات الفرح والحماسة . حتى يصل الجميع الى فناء الكعبة . واني لإخال القرآن يشير الى هذه الحفلات الوثنية عندما يقول عن المشركين: « وما كان صلوتهم عند البيت الّا مُكاء وتصدية . »[2]

ومهما يكن من أمر فان التقليد الإسلامي نظر نظرةً سيئة الى عمرة رجب . ولا شكّ انه عبَّر ، في هذا ، عن كره النبي لهذه « المتاتر »[3] ، او الضحايا التي كانت تُذبح وتُخلّى لحومها للطيور . ويظهر ان النبي حرّمها او منعها فقط مدة شهر رجب[4] ، لما كانت تحتوي عليه من شعائر الشرك البارزة في عُمرة رجب حتى ان « الرجبيّة » و« العتيرة » اصبحتا من المترادفات .[5] اما اهل مكة فكانوا على تعلّق شديد بهذه الأعياد الضاجة ، لا يتنازلون عنها بالسهل ، ولا يغيّرون شيئاً من مناهجها ولا سيّما زمن العُمرة . حتى كانوا يعتقدون ان من الخطأ ان يقوموا بشعائرها في اثناء الحج الى عرفة .[6] ولقد رمى النبي الى محو هذه الذكريات العريقة المتأصلة في ماضي مكة الجاهلي ، وفي فخامة حفلاتها المشركة عندما شاء ان يقوم بالعُمرة في غير شهر رجب[7] ، ثم عندما جمع بين العُمرة

---

١) قابل بما في ابن جبير : الرحلة ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢

٢) القرآن ٨ [الأنفال] ٣٥

٣) النسائي : السُنن ٢ : ١٩٠ ؛ ابن هشام : السيرة ٦٥٩

٤) النسائي : السُنن ٢ : ١٨٩ ، ١٨٠ ؛ مسلم : الصحيح ٢ : ١٦٥

٥) اسد الغابة ٤ : ٣٢٩ وقابل بما في ٣٦٧ ؛ ابن الأثير : النهاية ٢ : ٦٦ ؛ ابن هشام : السيرة ٥٢٤ ، ٥٦٩ ؛ الجاحظ : الحيوان ١ : ٩ ؛ ابو داود : السُنن ٢ : ٣٠

٦) مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٠ ؛ النسائي : السُنن ٢ : ٣٤

٧) مسلم : الصحيح ١ : ٤٨٣ . ولدلّ اكثر هذه « العُمرات » المنسوبة الى النبي تفتقر

والحجّ.[1]

* * *

هذا الماضي العريق ترك في تقاليد القرشيين لقباً طالما طمح اليه «السادة» وهو «اهل القباب الحُمر»[2]، لقب يُختصر احياناً فيُقال: «اهل القباب» محذوفاً منها نعت اللون وهو معروف.[3] ويقال ايضاً: «ربّ القبة» و«صاحب القبة». وكلّها تعادل اعظم الالقاب شرفاً وفخراً، كما يقول عبيد بن الأبرص:

اهل القباب الحُمر والنَّعَم المؤبَّل والمُدامَهْ[4]

وهو الذّ ما كان يُمدح به امراء الحيرة وملوك الغساسنة[5]. وقد مُدح والد امرئ القيس بانه «الربّ» و«ذو القباب».[6] حتى غدت الكلمتان «الربّ» و«القبّة» تتداعيان وتكمّلان الواحدة الاخرى. ولقد اصاب ذاك البدوي الهائم في القفر عندما شاهد الوان القبة الفاقعة، فصاح: «ما لهذه القبّة بدٌّ من ربّ!»[7]

وكانت لفظة «الربّ» تدلّ على اعلى رتبة في الدرجات الاجتماعية. فكان اصحابها من العرب، وهم «افخر الأمم»، يرغبون في المباهاة بهذا الفخر، فينشرون القبة الحمراء الدالة على «الربوبيّة» اذا صحّ التعبير[8]. ويتنافس شعراؤهم في تلك المنافرات، فيتنازعون اللقب ويمنحونه لرجال قومهم جميعاً وكلّهم

الى ما يؤيّدها. وقد تكون وُضعت لتبرّر غياب النبي عن الحجّ الاكبر، الذي لم يقم به الّا في آخر سنة من حياته.

١) راجع Lammens, *Sanctuaires préislamites...*, pp 131...

٢) ابن دريد: الاشتقاق ٢٠٨، ٢١٥؛ وقابل بها في الاغاني ٢٠: ١٢٦

٣) كما يلاحظ الجاحظ: الحيوان ٥: ١٤٣؛ الاغاني ١٦: ١١٦

٤) ديوانه (طبعة Lyall ٢٩: ٣

٥) الاغاني ٨: ٥٠، ٩: ١٧٣، ١٧٦؛ ١٠: ٣٠، ١٦: ١٦٥

٦) شيخو: شعراء النصرانية ٣، ١٢، ٧٣ ٧) الاغاني ١٦: ٥١

٨) اطلب بحثا في *Fâtima*, 73 و *Chantre*, 137؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢٧، ٢٢٣؛ الاغاني ١٦: ١٢٨؛ نقائض جرير ١٤٠؛ عبيد بن الأبرص: الديوان ٢٥: ١٠، ٢٧: ٥، ٢٩: ٣. وقد كان مضرب تزار جد العرب، احمر اللون. وهذا الخليفة هشام بن عبد الملك يترل الصحراء فيضرب خيامه الحُمر (الاغاني (طبعة صالحاني ١: ١٤) محتفظاً باللون الارستوقراطي القديم.

متحدّرون من دم ملوكي يشفي الكلبي.[1] حتى غدت دعواهم طبيعية فاصبحوا جميعهم من « اهل القباب ».[2] وكثيرًا ما كان الأشراف من العرب ينصبون الى جنب مضرب الاسرة ، قبةً من الجلد الأحمر يدلّون بها على شرفهم، ويحتفظون لها ، من تلك الصفة الدينية القديمة ، بحق الإعاذة اي اجارة كل من يلجأ اليها . وهذا قول ابن دريد: « هم اشراف في الجاهلية لهم قبّة وهي التي يُقال لها قبة المعاذة من لجأ اليها اعاذوه. »[3] وما اشبهها بقبة سُبيعة في حرب الفِجار . وهؤلاء الشعراء ينال ارفعهم حق القبة الحمراء في سوق عكاظ ، فيستظلّها النابغة الحكَم المشهور[4] .وهناك قبة المنافرة[5] تُنصب في المساجلات التي يشهدها كاهن حَكَم وتنتهي عادةً بذبح الأضاحي.[6]

اما اختيار اللون الأحمر الفاقع للقبة الدينية فقد يبدو على شيء من الغرابة اذا ما تذكرنا ان سكان البادية يسكنون منذ القِدَم الاخبية القاتمة الألوان.[7] وهذه عروس « نشيد الاناشيد » تشبّه سمرتها بلون « أخبية قيدار ».[8] واذًا فمن اين جاء البدوي باللون الاحمر ، وهو الذي يتجنّب طبعاً وعادةً اظهار مضربه فلا ينام على مفرق الطرق ، ولاقرب المياه لئلّا يشعر به اعداؤه . فلا بدّ من ان يكون أثر للاصل الديني في اختيار هذا اللون . وان « الدين » وحده يدفع البدوي الى الخروج عن المألوف . واذا قلنا الدين فهمنا العادات الاصيلة المتوارثة بالتقليد . وقد جاء عن ياد ، احد جدود العرب القدماء انه ،

١) شيخو : شعراء النصرانية ٤٠٤ ؛ الاغاني ١٤ : ٧٤ ، ١٥ : ٧

٢) شيخو : شعراء النصرانية ٢٩٢

٣) ابن دريد : الاشتقاق ٢١٥

٤) الاغاني ٣ : ٥٢ ، ٧ : ١٧٠ (وفيها يضاف القول : « قاد له حبال بين وتدين » . ولعلّ ذلك دلالة على تحديد حرم ؟) ٨ : ١٩٤ . اما بشأن عكاظ فراجع شعراء النصرانية ٦٤٠ ، ٦٨٧

٥) وقد تحتوي على الحجر المؤلّه .

٦) وقد تكون الأضحيّة جُملًا يوزّع لحمه على الحاضرين الاغاني ١٥ : ٥٤ : ٥٥ ، ٥٧ . وراجع ابن هشام : السيرة ٩٢ ، ٢٨٤ وفيها ذكر رئاسة الكهنة المحكّمين.

٧) راجع شعراء النصرانية ٧٧٠ . على ان هناك ذكرًا لمضرب احمر في الجاحظ : المحاسن ٢٠٣

٨) نشيد الاناشيد ١ : ٤

قبل ان يموت ، وهب ولده مُضَر « القبة الحمراء وهي من أدم »[1] فكانت من اعظم الهبات . وعلى اثره سار شيوخ القبائل مدة الاجيال المتتابعة . فكانوا يوصون لخير ابنائهم بالقبة المقدّسة يولونهم بها السلطة الدينية في القبيلة ، وقد ينصون على ذلك بالعبارة التقليدية فيوصون « بالقبة والبيت » اي بالحجر المؤلّه ومظلّته .[2]

وهكذا تنتقل ادوات العبادة هذه من أسرة الى أسرة ، من حيّ الى حيّ ، مدة القرون المتتابعة ، وعلى رغم الاحداث والانقلابات المتنوّعة ، في شعب سطحيّ الايمان ، عديم التقوى ، بعيد عن النظم والترتيبات الاكليريكية ، ولكنه وافر المحافظة ، شديد التقيّد بما كان عليه آباؤه .[3] وان هذه الانتقالات تشرح لنا تلك التعابير المتناقلة منذ القدم في كتب السِيَر والانساب ، فنفهم معنى : « صار البيت الى . . . » او « تحوّل البيت الى . . . »[4] او « فيهم كان بيتُ ربيعة . »[5] وقد يتّسع التعبير فيقال : « فيهم البيتُ والعدد . »[6] ولا يخفى ان العدد له اهمية كبيرة في حياة القفر . وكانت الأُسر السريّة تتنازع « القُبة » حتى اذا نالتها نالت قسطها من المجد والرياسة[7] على سائر عيال القبيلة . وقد

١) اطلب *Chroniken* II, 135, 139-142 ؛ البخاري : الصحيح ٤ : ٨٨ ، عدد ٤٢ ؛ ابن سعد : الطبقات ١ : ٤١ ، ومن هنا القول : « مضر الحمراء » (شعراء النصرانية ٦٨٣) يشمل قبائل مضر جميعها . وقد اوصى لها اياد « بالقبة الحمراء » . اما ربيعة فلا يعطيه ابوه الّا « الحباء الاسود » (*Chroniken* II, 135) ولتنتبه المقابلة بين « القبة » و« الحباء » . وهو ما انتبه له المفسّرون فجاوزوا الحدّ في استغلال هذه الوصيّة حتى استخرجوا من القبة الحمراء حق مضر في النبوّة والخلافة . اما ربيعة صاحب « الحباء الاسود » فليس له الّا الطاعة والانصراف عن الطموح الى الخلافة .

٢) *Chroniken* II, 141 وفيها لفظة « رياسة » مرادفة « للقبة الحمراء » . ولا يخفى ان هذا الترادف يرقى الى عصر متأخر ، مما يدل على غفلة الرواة المتأخرين .

٣) قابل بما في القرآن ٢ [البقرة] ١٦٥ ؛ ٥ [المائدة] ١٠٣ : « نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا »

٤) *Chroniken*, II, 139-140, 141, 142

٥) المقصود بنو حنظلة . لسان العرب ٢ : ٣١١ ؛ Lane, *Lexicon*, I, 280 . واطلب العِقد ٣ : ٥٢ ؛ الاغاني ١٠ : ٨٥ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ١٠٧ ، ١٣٠ ، ١٤٢ . واخال الجملة « اليهم البيت » مقتضبة من « صار او تحوّل اليهم البيت » . ابن دريد : الاشتقاق ١٧٣ ، ١٧٤

٦) كما يقول الشاعر جميل في الاغاني ٧ : ٩٩

٧) القُبة تنيل الرياسة وترفع الى مراتب الاشراف ، ابن دريد : الاشتقاق ٣١٥

يكون من اهتمام العرب في هذه الانتقالات انتباههم لصفة المشيخة[١] ، وقد ظهروا في اطوار حياتهم جميعها على تعلّق بهذا المبدأ الذي نقلوه الى الخلافة بعد الإسلام.[٢]

ان تكن هذه المؤسسات الوثنية في العهد الجاهلي قد خفيت مدة طويلة عن علماء عصرنا حتى اطولهم باعاً واعمقهم درساً ، فان السبب في ذلك يُردّ الى جُتاع الاحاديث الاسلامية وارباب التفسير . وقد يصعب علينا اليوم ان نقيس سماكة الغشاء الذي طرحه الحديث الاسلامي بين العهد الجاهلي ونظر علماء العصر . ولنذكر مثلاً واحداً دلالةً على الكثير من نوعه . نرى في الشعر القديم ذكرًا مستفيضاً « للبيت » : ملكيته ، وانتقاله ، وتحوّله من أسرة الى أسرة ومن قبيلة الى قبيلة . فما يكون موقف المحدّثين والمفسّرين من هذه المعلومات ؟ يريدون ان يعتقدوا ، وان يعتقد الناس معهم ، ان الشعراء الجاهليين ، وهم من الانحاء والقبائل المختلفة ، يقصدون بكل هذا بيت مكة اي الكعبة .[٣] واليها يردّون قول القرآن في سورة ابراهيم : « فاجعل افئدةً من الناس تهوي اليهم . »[٤] وقد ادّت هذه الشروح الخيالية ، بعد ان عزّزتها السيطرة القرشية بعد الإسلام ، الى حكايات واساطير نرى فيها حراسة الكعبة في ايدي قبائل يضعها التاريخ ، زمن ولادة محمد ، على الوف الاميال من مكة.[٥]

وقد يكون لنا عودة الى هذا البحث .

---

١) راجع *Yazīd*, 88; *Berceau*, I, 310

٢) « كان البيت من ضبّة في الكبر من بني ثعلبة » *Chroniken*, II, 142 ، وكذلك في الكلام عن الكعبة ؛ ابن هشام : السيرة ٧٥

٣) من ذلك قول قيس بن الخطيم (الديوان ١٣ : ١٢) « الحمد فُ ذي البنيّة »
ولا يخفى انه يقصد بالبنيّة : البيت ، « بيت » القبيلة اي حجرها المؤلّه لا الكعبة ، كما وهم المترجم كوالسكي جاريًا على اسلوب المحدّثين . وهو ما يطبق على بيت احد شعراء طيّ : « وبيت الله » في نوادر ابي زيد ٧٨ . وعلى اكثر « البيوت » في الشعر القديم .

٤) القرآن ١٤ [ابرهيم] ٤٠

٥) راجع *Berceau*, I, 116 ؛ الاغاني ٨ : ١٢٨ ، ١٨٨